

الندوة السابعة عشرة عام 1440هـ/2019م

متن المرشد المعين في حلقات الشيخ بلكبير

كلمة الشيخ عبد القادر جبار

إمام مسجد الشهداء، البيض



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

في إطار اللقاءات التي يتذكر فيها الجميع شيخنا سيدي محمد بلكبير بمناسبة وفاته رحمته الله نقدم هذه الورقة التي كتبت للمساهمة أن شاء الله في إبراز جزء من سيرة شيخنا العطرة، والمشاركة في جمع شيء من تاريخ مدرسته المجددة، ونظراً لضيق الوقت، وتحديد الموضوع بدقة من اللجنة المشرفة، والذي بقدر سهولته - بحسب المنظور - لكن تكمن صعوبته بعدم وجود المراجع البحثية، وإن وجدت فإنها في الغالب لم تكن وافية في موضوع بحثنا هذا، مع أن هذه الكتابات تبقى محولات جيدة لإحياء وإبقاء جذوة معالم هذه المدرسة العظيمة التي أقامها شيخنا رحمته الله والتي سارت إحدى أهم المراجع الجزائرية (في وقتنا الحاضر) التعليمية والتربوية، خصوصاً في التعليم الأصلي والأصيل مما يتعين على الجميع المساهمة بقدر الطاقة والجهد والإمكانات في على المحافظة معالم هذه المدرسة وتاريخها، وسيرة شيخها رحمته الله خاصة نحن في أحوج ما نكون إلى مثلها، في وقت كثر فيه انصراف الناس وبعدهم عن هذه المناهج ونسيانها. وحتى لا تبقى هذه المناسبة مبتورة من جانبها العلمي، فإننا نثمن مثل هذه البحوث والمساهمات واللقاءات - وإن كانت على الهوامش - لكن يبقى فيها خير كثير إن شاء الله تعالى.

وأستعين بالله تعالى فأقول: نحن الآن في معرض الحديث عن إحدى أهم مدارس إقليم (توات العامر)، وهو يعتبر أحد أهم الحواضر العلمية في العالم الإسلامي - في نظري - والذي يتميز بكثرة مدارسه ووفرة مشايخه، وحتى لا نطيل الكلام أو نعيده على مسامعكم الكريمة، نقول: إن هذا الإقليم المبارك يماثل في مكانته العلمية وأهميته التاريخية أقاليم النجف بالعراق، أو إقليم قم بإيران وحتى إقليم فاس قديماً، وأحمد الله تعالى على أنني أحد أبنائه في التحصيل العلمي والتربوي؛ مما يجب التنبه عليه والتنبيه له في ظل هذا الصراع الطائفي والمذهبي والسياسي الذي ينخر وحدة المسلمين خصوصاً في هذه الأيام العصيبة التي تمر على الأمة ومنها بلدي الجزائر. فشيخنا رحمه الله مع جلالة قدره وغزارة علمه بقي متمسكاً بمرجعية بلاده الدينية وطريقة مشايخه - رحمة عليهم أجمعين - مع تحسينات مصلحيه دعت إليها الضرورة، أو اقتضتها المصلحة خدمة للعلم الشريف في تربية النشء أو في الدعوة إلى دين الله تعالى. وشيخنا رحمه الله كان عالم زمانه، عارفاً بحاجبات مجتمعه، هذا المجتمع الذي يمر بأحلك أيامه مع ذاك الاحتلال البغيض، وكثرة الأمية والجهل، وانصراف الناس إلى غير أهل العلم وقلة التفقه في الدين وكثرة السفه، فكان هو الضوء المنير رحمه الله الذي يذهب الناس إليه لقضاء شؤون دينهم، ويذهبون إليهم بأبنائهم لتربيتهم وتعليمهم، فكانت الأمانة عليه عظيمة، والمسؤولية ثقيلة، فعرف قدرها، وساس شؤونها، ونظم مناهجها في توازن عجيب، فاختار من المناهج أيسرها وأفيدها، ومن طرق التعليم أنفعها وأبركها؛ لأنه رحمه الله كان يعلم بنظام التعليم بالكفاءات الذي يوصل المعلومة إلى الطلاب والتلاميذ على اختلاف مستوياتهم وعقولهم، وحتى أعرافهم ولغاتهم، في تناسق عجيب، فاختار من المتون في الحفظ أيسرها وأفيدها، ومن العبارات في الشرح أبسطها وأبينها حتى ينتشل ما أمكن في أسرع ما يخلص الناس من الجهل والأمية.

وقد جاءه الجميع أو واغلبهم لا يعرف شيئا، ولا يحفظ علما؛ لكن العناية الإلهية أتت بنا إليه فعلمنا ﷺ ما جعل الكثير منا في عداد العلماء والفقهاء والحفاظ، أو على أقل تقدير من المتعلمين، فكان يقدم الأهم، وخصوصا في تعليم الأحكام الفقهية؛ لأن الفقه بالذات من الأمور التي لا تستسيغها النفس، لأنها تحتاج فيها إلى صبر ومصابرة، وتحتاج إلى الجلد والمثابرة، ولذلك نادرا ما تجد أحدهم في هذا الزمان يقول: أنا ختمت الكتاب الفلاني، أو المتن الفلاني حفظا وشرحا، بل تجد عنده مسائل متفرقة، ونتفاً من العلم هنا أو هناك، ولا تجد عندنا فقهاء متضلعين في الأحكام في بلادنا كما نريده ونحتاج إليه، أو علماء لهم قدم راسخة في التفقه على الأقل في الأحكام الفقهية، وهو ما جعل شيخنا ﷺ يستشعر هذه المعضلة، ويقدم في منهج تدريسه ومدرسته على جميع المتون والكتب قديمها وحديثها، قصيرها وطولها، منشورها ومنظومها منظومة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين للشيخ عبد الواحد ابن عاشر ﷺ على جميع المقررات في مدرسته ومنهجيته. وهو - أي المرشد المعين - منظومة مباركة يتسابق الكبار والصغار على حفظها وفهمها كما يتسابق المشايخ والعلماء على تدريسيها، ويتسابق كبار علماء المغرب العربي على شرحها وتبسيطها، ونحن نرى بركتها على فقهاءنا ومشايخنا اليوم؛ حيث نجد ما لديهم من الفقه محفوظ، وما يحتاجون إليه من النص مستحضر، وسبب هذا التمكن والتفقه - بعد توفيق الله تعالى - هذه المنظومة التي كان يشرحها شيخنا ﷺ في كل دروسه سواء كانوا متخصصين في الفقه (أصحاب الشيخ) وكانت هذه الدروس في الضحى، وغالبا ما تكون في مجلس الشيخ الخاص، أو الطلبة غير المتخصصين (أصحاب المحاضر) وعامة الناس، وكانت في الفترة المسائية وفي المسجد الكبير.

خصائص هذا المتن: يعتبر متن الشيخ ابن عاشر - رحمة الله عليه من أحسن المتون نظما وأحلى المنظومات وزنا؛ لأنها:

1 - سهولة الحفظ وبسيطة اللفظ، وأنها من بحر الرجز الذي يثبت الحفظ جيدا ويبقى في الذهن طويلا.

2 - أنها كافية في بابها، فهي تكفي طالب العلم وتغنيه في أحكام العبادات والعقائد ومبادئ التربية والتركية والسلوك، أو قل: الإيمان والإسلام والإحسان. فكثيرا ما كان يقول شيخنا رحمه الله عنها أنها تكفي الطالب إذا أتم حفظها وفهم معناها في فقه العبادات.

3 - جل ما فيها إن لم اقل كل ما فيها لا يخرج عن مقصود الناظم منها، فكل كلماتها لا تخرج عن مقصود الناظم منها بحكم أو معنى، فكللمات هذا المتن لها معنى يخدم الأحكام الفقهية وليس كما يكثر في غيرها من المتن زوائد من باب تكملة البيت أو الضرورة الشعرية - كما يقال.

4 - أن هذا النظم ليس من المطولات فتمل ولا من المختصرات فتخل.

5 - من جمال هذه المنظومة انه حتى من ينكر علينا طريقة التدريس بمنهج المتن يأخذ منها ويحفظ من بعض أحكامها، وقد وجدت شروحاً اقتصرت على أبواب الأحكام دون العقيدة والتصوف؛ لان أصحاب هذه الشروح ينكر غالبا على الإمام ابن عاشر عقيدته أو منهجه التربوي، ولكن يأخذ الفقه من منظومته. وقد سمعت أن أحد الإخوة الأئمة في شمال الجزائر يدرس طلابه من ابن عاشر أحكام الصلاة، فعندما يصل إلى قول المنصف رحمه الله (سدل يد) في مندوبات الصلاة يقول: (قبض يد) وهذا كله يظهر قيمة هذه المنظومة وقوتها في بابها ومدى نفعها للأمة بأجمعها.

6 - الشيخ ابن العاشر اقتصر في منظومته على المشهور والمفتى به في مذهب الإمام، ولم يذكر فيها اختلاف الفقهاء وأقوالهم، فكانت أفضل ما يصلح للتلقين الفقهي المفيد دون عناء أو تعقيد، وهي مع نفاستها وقيمتها الكبرى فإنها وضعت للأمة.

الخلاصة الشيخان عبد الواحد بن عاشر ومحمد بلكير - رحمهما الله تعالى - كلاهما نفع الله بهما الأمة كل في مجاله ومكانه وزمانه، وإنا على يقين بأن هذه الورقة لا ترقى إلى مستوى تاريخ الشيخين بحثاً وتدويناً واستقصاءً، والذي لا يدرك كله لا يترك جله، أو كما يقال: لأن تشعل شمعة أفضل من أن تسب الظلام. ولكنها ربما إحدى المساهمات التي توظف الهمم، وتعيد بعض التقدير في هذه الذكرى لشيخنا، ومنهاجهم وجهودهم في نشر الوعي وإفادة الناس في أحكام دينهم، وتقوية الصلة بمراجعهم، وحتى لا تبقى هذه المدرسة التي أقامها شيخنا رحمته ومنهجها في غياهب النسيان بالرغم من وفرة الإبداع وبوادر الاجتهاد التي بذلت من شيخوخها. نقول على أقل تقدير لا بد من إحياء التدريس المرشد المعين على الأقل في منهاج وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بدأ بمنطقة توات بدأ يتسرب إليها ترك مناهج الأوائل التي أثبتت نجاعتها وفائدتها، ونحن نعقد هذه الندوة في دراسة أثر أحد شيخوخها، ومحاولة قراءة أسرار إحدى مناهجها حتى يمكن للجميع أن يعلم كيف يقف في وجه الشبهات وردّها؛ لأنه ما منعنا من الوصول إلا تضييع الأصول - كما يقال - ورحم الله الإمام الشاطبي إذ يقول: إذا كان الحق هو المعتبر دون الرجال فالحق أيضا لا يعرف دون وسائطهم، بل بهم يتوصل إليه، وهم الأدلاء عليه.

وفي الأخير أحببت أن أقدم لهذه الكلمة بما تيسر من التقدير، وتقدر من التيسير في بيان جزء من سيرة هذا الطود الشامخ - رحمة الله عليه - ومنهجيته في تلقين الفقه وأحكامه بما اختار رحمته من المناهج والمتون، فإن أصبت فمن الله هديت، وإن أخطأت فقلّة زادي، وإنما الحق عينت ونويت، ولكل امرئ ما نوى.

